المبرّد هو أبو العبّاس محّمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الملّقب بالمبرّد، ولد عام 210 ه، و كانت البصرة أنذاك من أكبر حواضر الثقافة، خاصة في عصر المأمون، و أخذ المبرّد ثقافته عن علماء عصره المبرزين، واتّجه بصفة خاصّة إلى الثقافة اللّغوية، فأخذ النّحو عن إمام النّحويين أنذاك "أبي عثمان المازني"، و تتلمذ كذلك على "الجرمي"، و كان من علماء اللغة و النحو، ثم وسع دائرة ثقافته لتشمل كذلك الأدب، و تتلمذ على الجاحظ، و كانت له صلات بشعراء عصره، كأبي تمام، و البحتري، وابن الرومي، وابن المعتّز، و حفظ الكثير من الأشعار. و توفي سنة 285 ه في عصر المعتضد.

خلّف "المبرّد" ثروة من الكتب، منها ما نشر، مثل: كتاب الكامل، و كتاب الفاصل، و كتاب المقتضب، و كتاب ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم، و شرح لامية العرب، و كتاب المذكر و المؤنث. و منها ما لم ينشر، مثل: كتاب الروضة، و كتاب التعازي و المراثي، هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الكتب ذكرها "ابن النّديم" في كتابه (الفهرست).

و يعدّ كتاب "الكامل" آخر ما ألّفه "المبرّد" من كبريات كتبه، فكان خيرها جلال قدر، و عميم نفع، و تمثلت فيه بوفاء و صدق ثقافة "المبرّد" بكل جوانبها، اللغوية أو النحوية أو الأدبية، و قد أوجز الإمام "المعافى بن زكريا" رأيه في الكتاب، فقال: «و عمل أبو العباس محمّد بن يزيد النّحوي كتابه الذي سمّاه "الكامل" و ضمّنه أخبارا و قصصا لا إسناد لكثير منها، و أودعه من اشتقاق اللغة و شرحها و بيان أسرارها و فقهها ما يأتي به مثله لسعة علمه و قوة فهمه و لطيف فكرته و صفاء قريحته، و من جلي النّحو و الإعراب و غامضها ما يقل من يسد فيه مسدّه».

1- الهدف من تأليف الكتاب:

قدّم "المبرّد" لكتابه "الكامل" بمقدّمة موجزة، توضّح على وجه التحديد مادّة الكتاب و الغرض من تأليفه، فقال: «هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، و شعر مرصوف، و مثل سائر، و موعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، و رسالة بليغة، و النية فيه أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا، و عن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا، و بالله التوفيق و الحول و القوة، و إليه مفزعنا في درك كلّ طِلبة، و التوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته، و عقد يرضاه، و قول صادق يرفعه عمل صالح، إنّه على كلّ شيء قدير».

و معنى هذا أنّ "المبرّد" قد أتى بالنّصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويا أو نحويا، و هو مجال اهتمامه الأوّل، و هذا يشير إلى أن تخصّصات علماء عصره كانت قد تحدّدت، و كان كل أديب يعرف مجال تخصّصه، و بناءً على ذلك كان يوظف المادّة التي حفظها واستوعبها هو و غيره من رجال عصره. و تحديد "المبرّد" الهدف من تأليف كتابه فيه شيء من التواضع، ذلك أنّ المشكلات اللغوية و النحوية التي أثارها، تعدّ في الحقيقة من قبيل البحث العام في اللغة و النحو، و مثال ذلك، البحث في وظيفة حروف الاستفهام إذا كانت أسماءً.

و لم يكن هدف "المبرّد" أن يجعل كتابه أحد كتب "المختارات الأدبية"، و إنما كان هدفه أن تكون هذه المختارات بالإضافة إلى قيمتها الأدبية مجالا لإظهار ثقافته اللغوية، و ذلك بتفسير أو شرح ما قد تثيره من مشكلات و مسائل لغوية، و تجلية ما قد تتضمنه من "كلام غريب" أو "معنى مستغلق".

2- منهجه و طريقته في الشّرح:

إنّ صورة "المبرّد" لا تنفصل عن صورة الكامل، فلا يكاد المرء ينطق باسم "المبرّد" حتى يرد على الخاطر اسم "الكامل"، فهما مرتبطان أكثر من ارتباط "المبرّد" بأي كتاب آخر من كتبه، و كتاب "الكامل" هو الذي وهب مؤلّفه المجد و الخلود.

يلجأ "المبرّد" في كتاب "الكامل" إلى منهج يأتي فيه بالنص، كأن يكون حديثا، كما في أول الكتاب، ثمّ يأخذ في شرحه لغويا و نحويا، مع تفسير ألفاظه الغريبة أو التي تحتاج إلى تفسير، مستشهدا في ذلك بروائع من الشّعر و النّثر، فإذا فرغ من ذلك قدّم نصا آخر، كأن يكون خطبة أو رسالة مشهورة لأحد الخلفاء أو الحكّام.

و قد يكون هذا النص حديثا شريفا، كما فعل في مفتتح كتابه، إذ يمثل بحديث الرسول -صلى الله عليه و سلم- للأنصار: «إنّكم لتكثرون عند الفزع و تقلّون عند الطّمع»، فالتفت إلى كلمة (الفزع) و شرع يشرحها، و يكشف النّقاب عما تحمله من دلالات، و يتمثل بشواهد من الشعر، كقول الشّاعر: (كلنا إذا ما أتانا صارخ فزع * كان الصّراخ له قرع الظنابيب)، و تلفته في الشاهد لفظة الظنابيب، فيهتم بشرحها و يستطرد متنقلا من معنى إلى آخر، و من شاهد إلى غيره، مما أفقد الكتاب الطّابع المنهجي.

و لقد أراد "المبرّد أن يكون كتابه "الكامل" مكتفيا بنفسه من خلال تقديم النّصوص و تفسيرها و إعرابها و تجلية غوامضها، و هو من هذه الناحية يمثل اتجاها تأليفيا جديدا في عصره، و يعدّ من أوائل المؤلفات التي اهتمت بتحليل النّص الأدبي.

و لم يبتكر "المبرّد" منهجا خاصا به في سبيل عرض مواده، بل إنّ منهجه منهج أصحاب كتب النّوادر و الأمالي و أمثالها، و قد أكثر من الأخبار و اللّطائف، و أجمل إبراز ما أحبّ إبرازه من الأخبار، فكاد المرء لا يحسّ بمشاق النحو و اللغة حين غطى عليها جمال الأدب. و إنّ قارئ "الكامل" ليخرج منه بمواد متصلة بتاريخ العرب في جاهليتهم و إسلامهم، في حياتهم السياسية و الثقافية و الأدبية، لا يجد مثيلا لها في كتاب آخر من كتب الثقافة العربية، و لو تخصّصت في الفروع المذكورة.

و كتاب "الكامل" به ميل شديد لإيراد النّماذج المختارة من الشّعر الجميل و النّثر البليغ، و قد اتّبع "المبرّد" في تأليفه، طريقة الاستطراد من موضوع إلى موضوع، مع العناية بالناحية الإعرابية و اللغوية من النص. فهذا الكتاب إذن يحمل طابع العصر الذي ألّف فيه، فبالإضافة إلى الاستطراد، فإنه ينتقل من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة، و أنّ دوره في النصوص الأدبية تعدّى الجمع و الاختيار، إلى الشّرح اللغوي و التصوير النحوي، و تتبع دلالات اللّفظ الواحد في وجوهها المختلفة عند جمهرة الأدباء و الشّعراء.

و من لوازمه في الشرح، أن يتبع قوله بكلمة "يا فتى"، مما يوحي بأنّ الكتاب في الأصل عبارة عن أمالي ألقاها على طلابه، و قيّد وعوده بالمشيئة، حتى أن بعض العناوين جاءت مقرونة بها، مثل: "باب الحروف التي تكون استفهاما و خبرا".

3- مادّته:

يضمّ كتاب "الكامل" موادا تنتمي إلى كلّ ميدان ألمّ به من ميادين الثقافة العربية، فيه النّحو، و اللغة، و الأدب، و الأخبار، و القرآن، و العروض، فيه مختارات من الشعر و النثر، و الأمثال، و الحكم، و الإيضاحات اللّغوية، و الشّروح النّحوية، و اللّمحات النقدية، و غيرها.

و المادّة الأدبية غزيرة و متنوعة، تتوزع بين الشّعر و النثر و الخطب، و هو من هذه الناحية يعدّ مصدرا أدبيا بما يشتمل عليه من ضروب الأدب. و قد تميّزت المادّة الأدبية في كتاب "الكامل"

بمميّزات خاصة، فعبّرت عن ذوق "المبرّد" و ثقافته، و أخضع اختيار هذه المادّة لمعايير خاصة، فوصف المادة النثرية بأنّها تجمع بين الكلام المنثور، و المثل السّائر، و الموعظة البالغة، و الخطبة الشريفة، و الرّسالة البليغة، و هذه المعايير منحت المادّة الأدبية قيمتها، لأنّها تمثل النموذج الذي انتهى إليه الذّوق الأدبي للمبرّد.

مسّ "الكامل" ثلاث قضايا نقدية اهتمت بها كتب البلاغة و النّقد، و هي: قضية اللفظ و المعنى، و قضية الجديد و القديم، ثم قضية السرقات الشعرية، مستخدما في ذلك العبارات المألوفة عند الذين توسعوا في هذه القضايا النّقدية.

و بالنّسبة للسرّقات الشعرية، فإنه تحدث عنها دون أن يعطيها هذا الاسم، و لكنّه يورد البيت من الشّعر، ثمّ يشير إلى من تناول نفس المعنى، و من أجاد منهم و من تخلّف، و من ابتدع المعنى أو نقله عمّن سبقوه، و هو في ذلك يقابل بين الشعر و النثر على السّواء.

هي آراء نقدية على هامش النّقد، فهو يروي الشّعر، و يفسّر لغوياته، و يعرب كلماته، و يحلّل جمله، و كثيرا ما يعلّق على أبيات الشعر بعبارات عامة تكشف عن ذوقه الشخصي، و لكنّها لا تكشف عن قضايا نقدية، و لا تتعرّض لمناحي الجمال فيه.

كما تعرّض "المبرّد" في "الكامل" لعدد من المسائل البلاغية، دون أن تأخذ شكل قاعدة علمية محددة، فتكلم عن الكناية و أقسامها، و المجاز و أنواعه و الاستعارة و ألوانها، و الالتفات و التجريد، و أطنب القول في التشبيه و عقد له بابا خاصا، و بيّن أنّ العرب تشبّه على أربعة أضرب: فتشبيه مفرط، و تشبيه مصيب، و تشبيه مقارب، و تشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير و لا يقوم بنفسه، و أعطى لكل ذلك أمثلة من جيّد الشعر، و تكلّم عن الإيجاز، و يسميه الاختصار، و الإطناب و يصفه بالمضخّم.

4- أبوابه:

ينقسم كتاب "الكامل" إلى أبواب، و لكنّه تقسيم غير منهجي، لأنّ الأبواب تتداخل فيما بينها، و لا يستقل كلّ باب بموضوع محدد، باستثناء أبواب قليلة كالباب الذي تحدث فيه عن أخبار الخوارج.

فالواضح أنّ "المبرّد" لم يقصد في كتابه إلى ترتيب أو تبويب بعينه، و لكنه كان يجمع أخبارا و قصصا، غايته من إيرادها أن يشقق الكلام على بيان غريبها و شرح جملها، و بيان اشتقاق اللغة و تصاريفها، و بيان أسرارها و فقهها، و بعض معاني الكلام و بيانه و بديعه من تشبيه حسن، أو استعارة لطيفة، أو كناية بليغة، و كان ينوّع موضوعات كتابه و يخلط الجدّ بالهزل أحيانا ليروّح به القلوب، و يكثر من الأخبار و الطّرائف و النّكات الممتعات. و الكتاب هو خلاصة ثمرة محاضرات "المبرّد" لأنه لا يسير وفق ترتيب محدّد، و كثيرا ما يستطرد من موضوع إلى آخر، و من مسألة إلى أخرى.

يعدّ هذا الكتاب مرجعا مهما لأدب الخوارج، فقد أفرد الباب التّاسع لرسائلهم التي تبادلوها خلال حروبهم مع الخلفاء، و ذكر طوائفهم من نوادرهم و قصصهم.

و هو مصدر أصيل لما أصاب الإسلام من فتن عاتية، منذ مقتل الخليفة الثالث "عثمان"، و تأجج الخلاف بين "علي" و "معاوية"، و موسوعة قيّمة للأدب الذي تحدث عن هذا الصّراع من خطب و رسائل و منافرات و هجاء، و قصص و شعر و أنساب، و الرّجال الذين شاركوا في هذه الأحداث.

و عقد للمولدين بابا، اختار فيه من أشعارهم ما استحسن واحتاج إليه للتّمثيل، فاستعار من ألفاظها في المخاطبات و الخطب و الكتب، و يقصد بالمولدين معاصريه من الشعراء العبّاسيين،

فأورد أشعارا لطائفة منهم، بعضهم معروف، مثل: "بشار بن برد"، و "أبو العتاهية"، و "أبو نواس"، و "صالح بن عبد القدوس"، و "دعبل الخزاعي"، و بعضهم معروف فقط عند دارسي الأدب المتخصصين فحسب، مثل: "أشجع السلمي"، و "عبد الصّمد بن المعتل"، أو معروف واشتهر بغير الشّعر كـ "الخليل بن أحمد الفراهيدي" واضع علم العروض.

و خصّ أذواء اليمن في الإسلام بباب خاص، استعرض فيه تاريخهم، و حديثه عن قومهم من اليمن عبر الكتاب كلّه، يشوبه العطف عليهم، دون أن يفقد جادة الحق و الاعتدال. كما يضمّ هذا الكتاب ألوانا من الثقافة الإسلامية و الإخبارية و التاريخية.

و قريبا من آخر الكتاب أحسّ أنّ قارئه يستشرف النّهاية متعبا، فأنشأ له بابا ذكر فيه من كلّ شيء، لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي عنه الملل، خلط فيه بين الجدّ و الهزل، ليستريح القلب، و تسكن إليه النّفس، و هو باب ذكر فيه موضوع العشق و الهوى و الصّبابة، و النّساء و الوصل و الهجر، لكنّه لم يتخفّف من وقاره، و لم يضمّن المادة كلمة خارجة، أو تعبيرا مكشوفا، أو فكرة جارحة.

5- رأي النّقاد في الكتاب:

يؤخذ على "المبرّد" أنّه كثيرا ما يروي أخباره دون أسانيد، إذ كثيرا ما يقول: «سمعت بغير وجه»، و«سمعت على غير وجه»، مما يشير إلى تحفظه في الإسناد إذا لم يكن يعرفه على وجه الدّقة، و مع ذلك فقد أُخذ عليه إسناد بعض الأقوال إلى غير قائلها، على أنّ "المبرّد" قد تميز باعترافه بالخطأ إذا أدرك أنه أخطأ، و قد قال في ذلك: «إنّه (أي الاعتراف بالخطأ) يمحو الذّنب الذي قد يترتّب على الوقوع في الأخطاء و نشرها بين الناس»، و بذلك يكون "المبرّد" قد وضع مبدأ اعتراف العلماء بخطئهم.

أخذ على "الكامل" تعصّبه للخوارج، و الحق أنّ "المبرّد" لم يتولّ الدّفاع عن الخوارج بوصفهم طائفة ذات عقيدة، بل اهتّم بأدبهم لكونه أدبا صادقا.

6- قيمة الكتاب"

رغم الانتقادات الموجهة لكتاب "الكامل"، إلّا أنه يعدّ مصدرا أساسيا للتراث العربي، سواء كان ذلك في مادته الأدبية القيّمة، بما فيها من روائع الشّعر و النّثر، أو في مادّته النحوية و اللّغوية، و من جهة أخرى يمثل خطوة هامة في نقد النص الأدبي و تحليله و تذوقه، و يعكس آراء صاحبه النّقدية التي أثيرت في عصره. و عدّ كذلك مصدرا مهما لأدب الخوارج و تاريخهم.

و لقد لقي "الكامل" تقديرا كبيرا من العلماء، واحتذاه بعضهم في تأليفه، فألّف "إبراهيم بن تاهَويه الفارسي" كتابا عارض به "المبرّد" في كامله، و ألّف "محمد بن جعفر أبو الفتح المراغي" المتوفى عام 371 ه، كتابا سمّاه (البهجة على نمط الكامل)، و غير ذلك.

و لقد اعترف الباحثون القدماء أنفسهم بأهمية كتاب "الكامل"، فعدّه "ابن خلدون" واحدا من مصادر الأدب الأساسية و أصول الفن، و ذكر أربعة كتب و هي: «أدب الكاتب لابن قتيبة، و كتاب الكامل للمبرّد، و كتاب البيان و التبيين للجاحظ، و كتاب النّوادر لأبي علي القالي البغدادي، و ما سوى هذه الأربعة فتبع لها، و فروع عنها».

و أقبل العلماء على كتاب "الكامل"، واعتنوا به عناية فائقة، واحتفى به الأندلسيون أيّما احتفاء، و صادف في نفوسهم هوى، فأقبلوا على دراسته، و عنوا بنشره، و من بينهم من كان يستظهره، مثل: "خلف بن يوسف بن فرتون" المتوفى سنة 352 ه، و آخرون كثيرون.

كما اهتّم بعض الأقدمين بشرحه، مثل: "السيد البطليوسي" المتوفى في عام 444 ه، و "هشام أحمد الوقشي" المتوفى سنة 538 ه في عصرنا الحاضر، و شرحه و علق عليه الشيخ الأديب "سيد بن علي المرصفي" في كتاب سمّاه (رغبة الآمل في شرح الكامل).

و قد طبع "الكامل" في مصر و بدول أخرى عدة طبعات، و طبع في ألمانيا سنة 1864 م مع مقدّمة و فهارس، و طبع بالقاهرة سنة 1286 ه و في سنة 1308 ه، و بالأستانة عام 1286 ه، و عدّة طبعات بالقاهرة. و طبعه المستشرق "وليم رايت" في ليبزج، و غير ذلك.

و في الأخير، يمكن القول إنّ كتاب "الكامل" للمبرّد يمثل خزانة العلوم، بما فيه من غزارة الأدب و براعة البيان، و بلاغة الكتابة، و وضوح الشّرح، و قد ألّم فيه بمجموعة كبيرة من العلوم و المعارف و اللّغة و النّحو و الأدب و الشّعر، فكان بحق حسن خاتمة لصاحبه، و منبعا عظيما لمن بعده.